الحياة والمعاد

تتمة مقالة السر اوليفر لدج

اننا نبحث في تفاعل الاثير والمادة والقوة وحواسنا لا تدرك وجود الاثير فتضطر ان نفرضهُ فرضاً ولهُ شأن في اكثر الاعمال التي نعرفها او فيها كلها فبهِ ترتبط السيارات حتى يصير منها النظام الشمسي وبهِ ترتبط جواهر المادة حتى تصير اجساماً مدركة بالحواس. واكثر مظاهرهِ في النور والكهربائية والمغنطيسية لان فعلهُ يظهر فيها على اشدهِ

افلا يحتمل ان الحياة والعقل يستعملان الاثير . أو لا يحتمل ان ما نجدهُ من الصعوبة في ادراك العلاقة بين الحياة والعقل والمادة سببهُ اننا نغفي عن الاثير لاننا لا ندركهُ . لكن المباحث الجديدة تدل على ان لهُ شأناً كبيراً جداً وانهُ يرجح كل الترجيح ان الكهارب والجواهر الفردة مؤلفة منهُ وان كل الاشياء التي نراها انما هي تنوعات من الاثير . وقد اتجهت الافكار الى تعليل كل الظواهر المادية بالاثير والحركة وبدأ علماء الطبيعة يقولون ان المادة والقوة تتبادلان اي تستحيل كلٌّ منهما الى الاخرى فهما شيء واحد في صورتين مختلفتين(١). وان المادة حالة من حالات القوة وهذه الحالة كشفت حديثاً واكثر الفضل في كشفها لانشتين

لقد عرفنا قبلاً حالات كثيرة وكلها تتبادل كالحركة الميكانيكية والمرونة والحرارة والنور والصوت وما اشبه . والآن عرفنا ان المادة مؤلفة من شحنات كهربائية سلبية وايجابية ويتوقف جرمها على سعة هذه الشحنات وهي موجودة في الاثير مظهرة بعض خواصهِ وصرنا نفهم ان المادة شكل من الاشكال التي يتشكل بها الاثير في حركتهِ مهما كان نوعها وهذا الشكل هو الذي ندركهُ بمشاعرنا وقد افادنا حتى صرنا لا نعتد بهِ . ونرى الآن في النجوم البعيدة بعض حركة الجواهر تستحيل امام عيوننا الى نور وحرارة . وما النور الذي نراهُ منها الا جزء صغير من قوة التحول العظيمة المتولدة فيها وعمل التحول هذا جارٍ ايضاً في شمسنا ولو لم يكن في

(١) لقد ارتأى ميكل خيثا مثل ذلك منذ سنوات قبل ان تقوم الادلة عليه فخالفته في لكن تقدم العلم الحديث اثبت صحة رأيه . ان آراء ذوي العقول الكبيرة تصح غالباً وآراء مخالفيهم قلما تصح او لا تصح ابداً

الشدة التي لهُ في النجوم الكبرى . وما حرارة الشمس التي نعتمد عليها سوى نتيجة تحول المادة الى قوة

هنا نرى ما يصح ان يفسَّر ارتباط الحياة والعقل بالمادة ولو كان ارتباطاً غير مباشر فقد اعتقد البيولوجيون (علماء الحياة) دائماً انهُ يجب ان يكون للحياة والعقل جسم مادي ليكون آلة او حاملاً لها اي يجب ان يكون لها ارتباط ما نسميهِ بالعالم المادي . ولكن العالم المادي غير خاص بالمادة بل يشمل النور والكهربائية والاثير ايضاً . واعتقد البيولوجيون وغيرهم ان الحامل المادي للحياة والعقل يجب ان يكون مادةً . وادّعى بعضهم ان الحياة والعقل من وظائف المادة وما ذلك الا لانهم لم يكونوا يعرفون ان للمادة حالات اخرى غير الحالة التي نراها . وانا اوافقهم على انهُ يتعذر علينا ان نفرض وجود الحياة والعقل من غير جسم او شيء تظهر بهِ افعالها او لمن ينتظر انهما يفعلان فعلاً محسوساً من غير ان يكون لها سلطة على قوة من القوى. ولكن لا داعي لهذا الفرض لاننا اذا قلنا انهُ لا يوجد في الكون الا الاجسام المادية رأينا امامنا مسائل لا تحل مثل مسألة فعل الشمس بالارض وانتقال كل فعل من مكان الى آخر في الفضاء سواء كان الفضاء واسعاً يقاس بملايين الاميال او ضيقاً يقاس بالمليمتر

في هذه المسائل جاء فرض الاثير من الضروريات فان جواهر كل جسم من جماد او نبات او حيوان تماسك بعضها ببعض بواسطة الاثير الذي يصل بينها. اي ان كل جسم شيء مؤلف من جسم مادي وجسم اثيري ولولا ذلك لكانت جواهر المادة نقطاً متفرقة كالغبار الطائر في الهواء

اذا كان الامر كذلك حق لنا ان نفرض فرضاً تجيزهُ الحقائق المتقدمة وفرض مثل هذا مفيد في ربط الحقائق بعضها ببعض وتكون نسبتهُ الى الحقائق كنسبة السمط الى الجواهر التي تنظم فيهِ فاذا انقطع السمط بقي في الامكان ان نجد سمطاً امتن منهُ . والقيمة للجواهر لا للسمط . وكما ان الحياة لا تفعل بالعضلات مباشرة بل بواسطة الاعصاب والعقد العصبية المركزية جاز انها لا تفعل بالاعصاب والعقد العصبية مباشرة بل بواسطة الاثير . والمرجح انها لا تفعل بالمادة مطلقاً فعلاً مباشراً بل بواسطة ما يحيط بها من الاثير او بواسطة الاثير الذي هو قسيمها . وان كل المواد تتحرك بواسطة الاثير . والجواهر الفردة غير متصلة بعضها ببعض ولذلك يفعل بعضها ببعض ميكانيكيًّا ولو لم يظهر ذلك جليًّا كما يظهر

في الكهربائية والمغنطيسية والنور . ثم اذا كان هذا الموصل المنتشر في كل مكان موجوداً فعلاً فيبعد عن الظن ان تكون الحياة قد تفاعلت عن استعماله لاننا نراها لا تغضي عن استعمال شيء من الاشياء حتى لا تأنف من ان تزج بنفسها في كل قامة وتغتنم كل فرصة تمكنها من التقمص في جسم من الاجسام فلا يعقل انها تغضي عن استخدام الاثير. نعم اننا لا ندرك وجودها قبلما تصل بمادة من المواد التي نعرفها ولكن قد توجد متصلة بشيء لا نعرفهُ او لا ندركهُ بحواسنا مباشرةً. هذا امر فرضي ولكن اذا كانت الحقائق ترينا ان شيئاً مجهولاً على نوع ما ولا يدرك بالحواس تستطيع الحياة ان تستخدمهُ ويستخدمهُ العقل ايضاً وجب ان لا نستغرب ذلك ولا ان نعدهُ مستحيلاً فان الذين كتبوا منذ خمسين سنة الكتاب المفنون بالعالم غير المنظور ذهبوا هذا المذهب ومن ثمَّ اتجه العلم الى تأييد مذهبهم ولو لم يثبتهُ حتى الآن وقد صار في بعض العقول اقوى من مذهب نظري

يقول علماء البيولوجيا انهُ لا بدَّ للحياة والعقل من جسم مادي يحملهما . وهذا مسلَّم ولكن هذا الحامل قد لا يلزم ان يكون مادة في شكل من اشكالها المعروفة بل يكون ابسط من المواد المعروفة فقد يكون شيئاً المادةُ صورة محسوسة من صورهِ . وهذا كان على نوع ما رأي البعض من كبار رجال الدين من مار بولس فنازلاً وما سموهُ جسماً روحانياً اخذت الادلة تدلُّ على انهُ قد يكون شيئاً حقيقيًّا لاننا اخذنا نكتشف الآن ان اجسامنا الحاضرة التي نستطيع ان نبحثها في معاملنا ونفحصها بالمكرسكوب انما هي آلات لاعمال اثبت منها وادق واسمى من ان تدرك بالحواس وهي التي تسبب حركاتنا المألوفة وتمكننا من الاتصال بغيرنا

وادل دليل على ان هذا الاتصال ممكن ايضاً بوسائل غير مادية جاء من التليثي اي فعل عقل بعقل آخر وليس ما يوصل بينهما من السبل المعروفة . هنا اشارة صغيرة تحتمل تفسيراً كبيراً . ولكن هذا الدليل لم يقف هنا بل زاد قوةً فاننا نعلم الآن ان الذين غادروا هذه الحياة الدنيا تاركين اجسامهم المادية لا يزال لهم ما يسمونهُ اجساماً وفيها ذاكرتهم وصفاتهم وشخصيتهم محفوظة لا يعتورها خلل . وقد عرفنا ذلك من اتصالنا بهم بالكلام والكتابة كما كنا نفعل وهم على الارض . والواقع انهم لم ينقطعوا عنا ولا هم على بعد شاسع منا . وقد لا نستطيع ان نتصور صورة واضحة لعلاقتهم بالزمان والمكان ولا غرابة في ذلك لاننا لا نعرف نسبتنا نحن الى الزمان والمكان ولا ما هي حقيقة الزمان والمكان .

وليس المسألة هنا مسألة قالوا وقلنا والقول ما قالت حزام لاننا لا نزال في معرض البحث والتحقيق . والذي عرفناهُ حتى الآن والذي علمهُ بعضنا بالاختبار المباشر هو ان الاتصال بالذين غادرونا لا يزال ممكناً في بعض الاحيان وفي احوال مناسبة فثبت من ذلك ان التذكر والتأثر والشخصية بنوع عام ليست من افعال المادة بل ان الشخصية تستخدم المادة للاتصال بالذين لا يزالون في الحالة المادية . وادلة هذا الاستنتاج مثل الادلة التي يعتمد عليها من يزور كرتنا الارضية من عالم آخر ويحكم انها مسكونة بمخلوقات عاقلة وعلى درجات مختلفة من العقل

لقد بدأنا نرى انهُ يحتمل ان ما كنا نقول بهِ من ان المادة والقوة باقيتان اي لا ينفد منهما شيء يجب ان يضاف اليهِ الحياة والعقل . وانا نفسي واثق بذلك وان الكون تام لا يفنى منهُ شيء وان كل ما لهُ وجود خفي فهو خالد . وقوانا لا تبطل بتغير الالة التي تظهر بها . ومن المرجح اننا كنا دائماً نؤثر في الاثير وسنبقى نؤثر فيهِ . وتأثيرنا في المادة غير مباشر على ما يظهر والمرجح اننا نؤثر في الاثير مباشرة ونؤثر في المادة بواسطة الاثير

والجسم المادي الذي لنا هنا ونحن نستعملهُ دائماً هو آلة وقتية غير وافية بالمراد بل هو معرَّض لتكل ما يصيب المادة من التفرك وقلة المرونة ومن الانحطاط والدثور ونحن لا نستعمل الجواهر الفردة مجردة وانما نستعمل مركباتها التي نطلق عليها اسم البروتوبلازم وهذه المركبات تتغير دواماً وهي قابلة للانحلال مثل المواد المشعة . ومن المحتمل ان انحلالها يولد القوة اللازمة لاعمالنا . اما الاثير فتام لا يتلف ولا ينحل ومرونتهُ تامة ولا فرك فيهِ وكل خواصهِ التي نعرفها تامة ايضاً ولذلك فاذا فرضنا اننا نصير نعتمد عليهِ نكون قد حُجبنا عن وسائلنا الوقتية الناقصة ويصير وجودنا ابديًّا خالياً من الشوائب والدرجات التي نرتقي فيها حينئذٍ تفوق الوصف وكل ما نعلمهُ الآن بالامتحان هو اننا ننتقل من الحياة الدنيا الى الاخرى

وكلة « الأخرى » لا مسوغ لها لان العالم واحد والحياة الاخرى متصلة بالحياة الدنيا وما الموت الا وسيلة يتحرر بها جسمنا الروحي اي الجوهري الخالد من مجموع الدقائق التي اجتمعت وانتحمت لتستعمل آنَ حين

وقد يتعذر علينا ان نفهم لماذا اتصلنا هذا الاتصال بالمادة وهي غريبة عنا لا نستطيع ان نعتبر بها عن افكارنا الا بعد الجهد . ولكن يظهر ان لحياتنا في

الارض شأناً فان المشاق التي كابدها اسلافنا والجهود التي بذلوها وكل سعي تدعو اليه احوال المعيشة كل ذلك آل الى تربية النوع البشري وتهذيب الاخلاق وهو ينيلنا من الخبرة ما نحن في اشد الحاجة اليه في درجات ارتقائنا المستقبلة

وهذا ما يقال لنا « من الجهة الاخرى » ويقال ان الذين هناك يرقبون سيرنا باهتمام شديد وهم على استعداد تام لمساعدتنا كلما ابنا رغبتنا في المساعدة

ولكن لا يظنّ احد ان كل ما هنالك صلاح محض فقد يكون هناك شرور اذا فتحنا عقولنا لها نالنا منها ضرر ورجعنا القهقرى بدل ان نرتقي ودمتنا حينئذ على رؤوسنا لاننا احرار الارادة ولنا ان نختار ما نشاء . والفضلاء في هذه الدار وفي الآخرة يتوخون ارشادنا الى اختيار ما هو اصلح لنا وانفع

هذه امور بسيطة وانا اود ان كلّ شيء يكون بسيطاً ولذلك قبلها البسطاء قبل المتازين من رجال العلم لان هؤلاء انكروا امكان الخلود بناءً احكامهم على مقدمات فاسدة . ينكرون ما نعلم انهُ امر واقع ويحسبون اننا مخدوعون ومن اهل الاوهام او الدعوى . ولكن المسألة مسألة ادلة وهم يعلمون انها ادلة ولكنهم يظنون ان هذه الادلة لا تأتي غرضاً بل لا بد لا كتشافها من درس ظواهرها الخاصة . والذين درسوا هذه الظواهر قد يخالفونني في ما قلتهُ عن الاثير وانا لا اتمسك به اذا اروني دليلاً على نقضه لان شأنهُ عندي غير كبير واما الحقائق الواقعة فشأنها كبير ويصعب عليّ انكارها . قد يقولون انني مستبدٌ في رأيي اما انا فاقول ان لحياة الانسان بعد الموت ادلة لا يستخف بها ولا يجوز ان تعامل باقل مما يعامل غيرها من النتائج العلمية . يجب ان نفحصها بالصبر والتأني والتمحيص ولكن بعقل خال من الغرض فلا يجوز التعصب لها ولا التعصب عليها . يجب على الباحث ان يكون متضعاً متأكداً ان ما نعرفهُ الآن عن الوجود لا يستغرق كل ما يوجد وان ما نعرفهُ عن الكون اقل من ان يبلغ بنا الى ادراك عظمة الوجود

ان امامنا ادلة على ان بعض الجهل المتفشي قد يزول في جيل او جيلين لان الحقائق ستكثر وتصير اقرب تناولاً مما كانت ولا يطول الزمان قبلما يدرك الناس ان نظرهم للكون كان اضيق مما يلزم وان التوسع في هذا النظر صار في حيز الامكان وحينئذٍ يزيد ادراكنا لغوامض الكون